كتيب توعوي اجتماعي

أنواع بنت الأرندلي في مجتمعاتنا

الداء والدواء

بنت العلم والدين
تتعالى بعلمها ودينها
وتحتقر من حولها

بنت المظاهر
تتعيش للاستعراض
وترضي أعين الناس

بنت الأنساب
تفخر بالنسب والقبيلة
وترى نفسها أعلى

بنت السوشال
تعيش للمقارنات
وتبحث عن الإعجاب

بنت الماديات
جيث لقاس القيمة
بالثمن والمظاهر

حين يتحول الزواج من سكن ومودة
إلى مشروع استعراض وطبقية اجتماعية

أنواع بنت الأرندلي في مجتمعاتنا

الداء والدواء

◆ ◆ ◆

حين يتحول الزواج من سكن ومودة إلى مشروع استعراض وطبقية اجتماعية

منذ أكثر من عام وأنا أفكر في كتابة هذا المقال، ثم أتراجع عنه كلما هممت بالبدء. وربما كان سبب التردد أن الموضوع حساس، وأن الحديث عن مشكلات الزواج والعلاقات الأسرية قد يُفهم أحياناً على أنه هجوم على النساء، أو انتصار للرجال، أو تدخل في بيوت الناس.

لكن الصمت عن الخلل لا يصلحه، والمجاملة التي تترك بيتاً كاملاً يسير نحو الشقاء ليست حكمة، كما أن السكوت عن سلوك خاطئ خوفاً من إساءة فهم الكلام قد يجعل هذا السلوك يتضخم حتى يصبح أسلوب حياة تنتقل عدواه إلى الأبناء.

ولهذا قررت أن أكتب، لا لأدين النساء، ولا لأبرئ الرجال، بل لأتحدث عن نموذج اجتماعي نراه حولنا كثيراً، وقد عايشت بعض صوره سنوات طويلة.

وسأطلق على هذا النموذج، بشيء من السخرية، اسم:

بنت الأرندلي.

ولا أعرف للأرندلي بنتاً حقيقية، ولا أقصد شخصاً أو عائلة بهذا الاسم، ولا أحمل خصومة تاريخية مع بيت الأرندلي الكبير!

إنما استعرت التعبير من العامية المصرية القديمة، حيث كان يُستخدم ساخراً في وصف شخص منتفخ الذات، يتصرف كأنه خرج تَوًّا من قصر سلطاني، مع أن القصر ربما لا وجود له إلا في خياله.

وبنت الأرندلي في هذا المقال ليست امرأة محددة، بل عقلية وسلوكًا: امرأة تدخل بيت زوجها، فتتعامل مع الناس وكأن الزواج قد منحها رتبة اجتماعية جديدة، وترى نفسها أرفع من أخواتها وقريباتها وجاراتها، ولا ترضى بحال زوجها، ولا تكف عن المقارنة والمطالبة والاستعراض.

وقد لا يكون استعلاؤها قائماً على المال وحده؛ فقد تتكبر بالجمال، أو باسم العائلة، أو بمستواها الاجتماعي، أو بشهادتها، أو بثقافتها، أو بما تعلمته من علوم الدين، حتى يتحول كل ما كان ينبغي أن يكون نعمة إلى سلم تصعد عليه فوق الناس.

والإنصاف يقتضي القول إن هذا المرض لا يحمل بطاقة أنثوية؛ فقد نجد أيضًا ابن الأرندلي الذي يتكبر بمال زوجته، أو بوظيفته، أو بسيارته، أو باسم عائلته، أو بشهادته وثقافته.

لكن حديثنا هنا عن صورة محددة تظهر عند بعض الزوجات، لما لها من أثر مباشر في استقرار الأسرة، وتربية الأبناء، وعلاقة الزوج بأهله وأهل زوجته.

الجمال يدخل أولاً... والعقل ينتظر في الخارج

عندما يريد الشاب الزواج، تختلف طرق الاختيار من مجتمع إلى آخر، بحسب العادات، ومدى انفتاح الأسر أو محافظتها، وطبيعة العلاقات الاجتماعية فيها.

لكن شيئًا واحداً يكاد يتكرر في كثير من البيئات: ينشغل الشاب بجمال الفتاة، وتنشغل الأسرة بمظهرها وسمعة بيتها، ثم تُترك الأسئلة المهمة إلى وقت لاحق، وكأن الزواج إعلان تجاري يكفي لنجاحه أن تكون صورة الغلاف جميلة.

يرى الشاب الوجه فينسى الطباع.

يعجبه المظهر فينسى نمط المعيشة.

يسألون عن طولها ولون عينيها، ولا يسألون كيف تنظر إلى المال، وكيف تعامل والدتها ووالدها، وماذا تفعل عندما لا تحصل على ما تريد.

يسألون عن شهادة الجامعة، ولا يسألون عن شهادة الرضا.

يسألون عن أثاث بيت أهلها، ولا يسألون: هل تستطيع العيش في بيت أقل منه؟

وقد يسألون عن حفظها وثقافتها وتدينها، ولا يسألون: هل جعلها ما تعلمته أكثر تواضعاً ورحمة، أم جعلها ترى نفسها وصية على عقول الناس وقلوبهم؟

وهنا تبدأ الحكاية.

فالجمال نعمة، ولا عيب أن يكون من أسباب القبول، لكنه لا يدير ميزانية، ولا يسدد ديناً، ولا يربي طفلاً، ولا يحفظ بيتاً عندما تتغير الظروف.

والشهادة نعمة، والعلم نعمة، والتدين نعمة، لكنها لا تبني بيتاً مستقراً إذا اقترنت بالكبر واحتقار البسطاء وقطع الأرحام.

بعد أشهر من الزواج تهدأ موسيقى الحفل، وتُحفظ الصور في الهاتف، ويكتشف الزوج أن الفستان الأبيض عاد إلى خزانته، لكن قائمة الطلبات لا تزال ترتدي ملابس العمل الرسمية.

وقد يكتشف أيضاً أن مجلس البيت قد تحول إلى قاعة محاضرات، وأن الزوجة لا تتحدث مع أهل البيت بقدر ما تصنفهم وتصححهم وتقيس مستوى وعيهم.

النوع الأول: بنت القصر التي تزوجت صاحب الشقة الصغيرة

هذا النوع ينشأ في بيت ميسور أو ثري، ثم تتزوج رجلاً أقل من أهلها قدرة مالية.

وليس في هذا الزواج عيب في ذاته؛ فكثير من الزيجات الناجحة قامت بين أشخاص من مستويات مالية مختلفة. الخلل يبدأ عندما تدخل الزوجة بيت زوجها وهي مقتنعة بأنه مطالب بأن يوفر لها المستوى نفسه الذي كانت تعيشه عند أهلها، مهما كان دخله وإمكاناته.

كانت تسافر مع أهلها كل عام، فعليه أن يسافر بها ولو اقترض.

وكان بيت أهلها واسعاً، فعليه أن يشتري بيتاً مثله ولو باع راحته وعافيته.

وكان والدها يبدل السيارة كل بضع سنوات، فعلى الزوج أن يفعل الشيء نفسه، مع أن والدها ربما أمضى أربعين عاماً في العمل، بينما الزوج لا يزال في بداية حياته.

تقول له:

– أنا لم أعتد هذه الحياة.

فيجيبها في سره:

– وأنا لم أعتد أن أعيش مطارداً من البنك!

ثم تبدأ المقارنة اليومية:

زوج أختي اشترى لها.

زوج صديقتي سافر بها.

ابنة خالتي أقامت حفلاً أكبر.

فلانة لديها خادمة.

فلانة تسكن في حي أفضل.

ولا تسأل نفسها: ما دخل زوج فلانة؟ وما ديونه؟ وما ثمن هذه المظاهر؟ وهل بيتهما سعيد أصلاً، أم أن الصور المنشورة هي الجزء الوحيد السعيد فيه؟

وهكذا يتحول الزوج من شريك حياة إلى موظف مشتريات، وتتحول المحبة إلى فاتورة شهرية، ويصبح دخله كله عاجزًا عن اللحاق بمستوى صنعه بيت آخر، في زمن آخر، وبإمكانات أخرى.

والحل هنا واضح منذ البداية: الرجل الذي يتزوج امرأة من مستوى مالي أعلى يجب أن يناقش معها بصراحة الحياة التي يستطيع توفيرها، والمرأة العاقلة التي تقبله يجب أن تقبل واقعه، لا أن تقبل صورته ثم تبدأ مشروعًا طويلاً لإعادة تصنيعه.

فالزواج ليس عملية نقل للزوجة من بيت والدها مع الاحتفاظ بجميع الامتيازات السابقة، وإضافة زوج جديد إلى قائمة الممولين.

النوع الثاني: بنت الحارة التي استيقظت في القصر

وهذا النوع هو النقيض الظاهري للنوع الأول، لكنه يشترك معه في المرض نفسه.

تنشأ المرأة في بيت متواضع، ثم تتزوج رجلاً أفضل حالاً من أهلها، فتشعر أن الحياة قد منحتها ترقية اجتماعية استثنائية.

في البداية تفرح بالنقلة، وهذا طبيعي. ثم تتحول الفرحة أحياناً إلى انتفاخ، فتبدأ بالنظر إلى أهلها من علٍ، وإلى أهل زوجها باعتبارهم عقبة أمام «مستواها الجديد»، وإلى أخواتها كأنهن موظفات في جناحها الملكي.

كانت قبل الزواج تشارك أخواتها الغرفة، ثم أصبحت بعد الزواج لا تحتمل زيارتهن؛ لأن أصوات أطفالهن تزعج الأثاث المستورد!

وكانت أمها تطبخ لها وتخدمها، ثم صارت تستقبل أمها كأنها ضيفة جاءت دون موعد إلى فندق خمس نجوم.

وقد تدفع زوجها تدريجيًا إلى الابتعاد عن أهله وأهلها معًا، لأنها تريد بناء دائرة اجتماعية جديدة تليق بالصورة التي رسمتها لنفسها.

تقول له:

– لا أريد أن يعرف الناس أننا نعيش مثلهم.

وكأن «الناس» مرض معدٍ، وكأنها هبطت إلى الأرض في مركبة فضائية، ولم تكن واحدة منهم قبل سنوات قليلة.

هذا النوع لا يطلب المال فقط، بل يطلب من الزوج أن يشارك في إعادة كتابة التاريخ: أن ينسى من أين جاءت، وأن يتجاهل من وقفوا معها، وأن يتصرف معها كأنها أميرة ضلت طريقها سنوات ثم عثر عليها أخيرًا.

والمشكلة الأخطر أن هذه العقلية تنتقل إلى الأبناء؛ فيتعلم الطفل أن قيمة الإنسان في سيارته وملابسه ومنزله، وأن الأقارب درجات، وأن احترام الناس يرتفع وينخفض بحسب رصيدهم المالي.

النوع الثالث: بنت الأرندلي الإلكترونية

وهذه نسخة حديثة لم تكن موجودة بهذا الاتساع قبل انتشار وسائل التواصل الاجتماعي.

كانت المقارنة قديمًا محصورة في الجيران والأقارب. أما اليوم فقد أصبح الإنسان يقارن بيته بمئات البيوت، وزواجه بمئات الزيجات، ورحلته بصور مشاهير يسافرون إلى أماكن لم يسمع بها إلا بعد أن رآها على الشاشة.

تفتح بنت الأرندلي هاتفها صباحًا، فترى امرأة تصور إفطارًا فاخرًا أمام البحر، ولا ترى عشرات المحاولات التي سبقت الصورة، ولا تعرف من دفع ثمن الرحلة، ولا كم بقي من الدين بعد العودة.

ثم تنظر إلى زوجها الذي يشرب الشاي في كوب عادي، فتشعر أن حياتها قد انهارت!

ترى باقة ورد فاخرة فتسأل:

- لماذا لا تفاجئني مثل زوجها؟

ولا تعرف أن زوج صاحبة الصورة ربما اشترى الورد بعد خلاف استمر أسبوعاً، وأن الصورة نُشرت قبل تجدد الخلاف بعشر دقائق.

بنت الأرندلي الإلكترونية لا تعيش حياتها؛ بل تعيش في لجنة تحكيم دائمة تقارن فيها واقعها بلقطات منتقاة من حياة الآخرين.

وقد يصبح الزوج معها مطالباً بإثبات الحب للجمهور، لا لزوجته. فلا تكفي الهدية حتى تُصوَّر، ولا تكفي الرحلة حتى تُنشر، ولا تكفي المناسبة حتى يراها الناس ويشهدوا أن صاحبة الحساب سعيدة جداً، ولو كان الزوج في زاوية الصورة يحسب الأقساط القادمة.

النوع الرابع: بنت الاسم والعائلة

وهذا النوع لا يشترط أن يكون غنياً؛ فقد يكون رأس ماله كله اسم العائلة.

تحدثك طويلاً عن جدها، وعن قريبها الذي كان مسؤولاً، وعن أحد أعمامها الذي امتلك أرضًا قبل خمسين عامًا، وكأن أملاك العم المتوفى تنتقل اجتماعياً إلى جميع أبناء العائلة إلى يوم القيامة.

تنظر إلى زوجها وأهله من خلال ميزان الأسماء والألقاب، وتتعامل مع الزواج كأنه تحالف بين دولتين، إحداهما عظمى وهي أسرتها، والأخرى نامية وهي أسرة الزوج.

وقد يدخل الزوج هذه اللعبة أيضًا، فيبدأ بالدفاع عن اسم عائلته، فتتحول غرفة الجلوس إلى مؤتمر أنساب:

- نحن أصلنا من المكان الفلاني.
- ونحن جدنا كان كذا.
- لكن عائلتنا معروفة أكثر.

وفي النهاية لا يعرف الطفل لماذا تشاجر والداه، لكنه يتعلم أن الأجداد الذين ماتوا منذ عقود لا يزالون يشاركون في الخلافات الزوجية.

النوع الخامس: بنت المظاهر ولو على حساب الخراب

وهي التي لا تسأل: هل نستطيع؟

بل تسأل: ماذا سيقول الناس إن لم نفعل؟

لا يهمها أن يكون البيت مستقراً بقدر ما يهمها أن يبدو مستقراً.

لا يهمها أن تكون المناسبة جميلة، بل أن تكون أغلى من مناسبة قريبتها.

ولا يهمها أن يملك الزوج ثمن السيارة، ما دام الناس سيرونه وهو يقودها.

قد يدخل الزوج في ديون طويلة لإقامة حفل لا يتجاوز ساعات، أو لشراء أثاث لا يحتاجه، أو للسفر إلى مكان لا يستطيع تحمل نفقاته.

وعندما يعترض تقول:

- مرة واحدة في العمر!

لكن المشكلة أن «المرة الواحدة» تتكاثر بطريقة عجيبة:

الزفاف مرة واحدة.

والولادة الأولى مرة واحدة.

والعيد مرة واحدة في السنة، لكنه يأتي كل سنة.

والذكرى السنوية مرة واحدة، لكنها أيضًا تأتي كل سنة.

ثم يأتي تجديد الأثاث، والسيارة، والهاتف، والمدرسة، والرحلات، حتى يصبح الزوج يعيش سلسلة متصلة من «المرات الواحدة».

النوع السادس والأخطر: بنت الأرندلي العالِمة

وهناك نوع شديد الخطورة من بنت الأرندلي، قد لا يستعرض المال، ولا يتفاخر بالأثاث والسيارات، ولا يتحدث كثيراً عن نسب العائلة، لكنه يحمل في رأسه طبقية من نوع آخر، ربما كانت أفسد من الطبقية المالية والاجتماعية كلها:

طبقية العلم والتدين.

تتعلم المرأة، وتحصل على شهادة، أو تدرس بعض العلوم الشرعية، أو تحفظ قدراً من القرآن، أو تحضر مجالس العلم، ثم لا تنظر إلى ما تعلمته على أنه نعمة تستوجب الشكر والتواضع وخدمة الناس، بل تراه رتبة اجتماعية ترفعها فوقهم.

وفجأة تصبح في نظر نفسها عالمة زمانها، ويصبح من حولها عواماً لا يليقون بمجالسها، ولا يفهمون حديثها، ولا يستحقون قربها.

لا تتحدث إلا مع من تصفهم بالمثقفين.

ولا تزور إلا من تراهم في مستواها العلمي.

ولا ترتاح إلى مجالسة النساء البسيطات؛ لأن حديثهن، في تصورها، لا يرقى إلى مستوى عقلها.

وقد تستثقل الجلوس مع أمها أو أخواتها أو قريباتها؛ لأنهن لا يعرفن المصطلحات التي تعلمتها، أو لأن اهتماماتهن اليومية لا تبدو لها عميقة بما يكفي.

تحدثك عن التواضع، ولكنها لا تجلس مع المتواضعين.

وتلقي درساً في الرحمة، ثم تعجز عن احتمال امرأة بسيطة تخطئ في التعبير.

وتتكلم عن بر الوالدين وصلة الأرحام، ثم تتعامل مع أقاربها كأنهم مرحلة ثقافية تجاوزتها!

وقد تجلس في مجلس عائلي فلا تشارك الناس حديثهم، ولا تبتسم لحكاياتهم، ولا تحاول إدخال السرور عليهم، بل تحمل ملامح من جاء مراقباً لجهل الحاضرين، لا مشاركاً لهم.

فإن تكلمت امرأة بسيطة في أمر من أمور الدين، سارعت إلى تصحيحها بطريقة تشعرها بأنها ارتكبت جريمة علمية، مع أن الخطأ كان يمكن أن يُصحح بلطف وكلمة طيبة.

وإن اختلف معها أحد، لم تره صاحب رأي آخر، بل رأته جاهلاً لم يبلغ المرتبة التي بلغتها.

وإذا امتدحها الناس، أو أكثر زوجها وأهلها من وصفها بالعالمة والمثقفة والفقيهة، ربما صدقت الصورة حتى أصبحت تعيش داخلها، ثم أخذت تطلب من الجميع أن يعاملوها على أساسها.

ومن هنا تبدأ بنت الأرندلي العالمة في الظهور بكامل هيبتها العلمية:

لا تنادي الناس إلا من فوق منبر متخيل.

ولا تتحدث معهم، بل تحاضر فيهم.

ولا تستمع إلى تجاربهم، لأنها قرأت كتاباً في الموضوع.

ولا تقبل نصيحة من أمها، لأن أمها لم تدخل الجامعة.

ولا تستفيد من حكمة امرأة مسنة، لأن لغتها بسيطة ولا تحمل شهادة موثقة ومختومة!

وقد تكون الأم التي لم تكمل تعليمها أفقه بالحياة منها، وأعرف بطبائع الناس، وأحسن تدبيراً للبيوت، وأصدق وفاءً للزوج والأهل، لكن بنت الأرندلي لا ترى هذه العلوم؛ لأنها ليست مكتوبة في شهادة معلقة على الجدار.

عندما يتحول العلم إلى جدار

العلم الحقيقي يفتح صاحبه على الناس، أما العلم المغشوش فيغلقه عنهم.

كلما ازداد الإنسان علماً حقيقياً، اتسعت رؤيته، وأدرك مقدار ما يجهله، ورق قلبه للناس، وأصبح أرفق بأخطائهم وأكثر صبراً على تفاوت مداركهم.

أما من ازداد علمه فازداد احتقاراً للناس، فلا بد أن يراجع حقيقة ما تعلمه، والطريقة التي فهم بها العلم.

فقد يكون قد جمع معلومات، لكنه لم يتعلم الحكمة.

وقد يحفظ النصوص، لكنه لم يفهم مقاصدها.

وقد يتقن الجدل، لكنه لم يتعلم حسن الخلق.

وقد يعرف أحكاماً كثيرة، لكنه أخفق في أول امتحان عملي لها داخل بيته وبين أقرب الناس إليه.

العلم الذي لا يجعل صاحبه أكثر تواضعاً قد يتحول إلى حجاب يحجب عنه عيوبه.

والتدين الذي لا يورث الرحمة قد يتحول إلى شعور بالتفوق الأخلاقي.

والشهادة التي تجعل صاحبها يحتقر من لم يحملها ليست دليلاً على نضج العقل، بل قد تكون دليلاً على أن العقل لم يستطع حملها.

ليس كل من عرف عبارة صار حكيماً، ولا كل من حفظ نصاً أصبح فقيهاً بأحوال الناس، ولا كل من تعلم المصطلحات امتلك حق الجلوس على منصة الحكم عليهم.

فالإنسان قد يحمل الكتاب في ذاكرته، ثم يعجز عن حمل قلب أمه بكلمة طيبة.

وقد يحفظ أبواباً كاملة في الأخلاق، ثم يرسب في امتحان الابتسامة لامرأة بسيطة.

أخطر من بنت المال والجمال

قد تفسد بنت الأرندلي المالية ميزانية بيت، وقد تقطع بنت الأرندلي الاجتماعية بعض العلاقات، لكن بنت الأرندلي العالمة تستطيع أن تصنع خللاً يمتد إلى أجيال.

فهي لا تقدم استعلاءها على أنه هوى شخصي، بل قد تقدمه على أنه علم، أو وعي، أو التزام، أو اختيار للنخبة الصالحة.

وبذلك يختلط الأمر على الزوج والأبناء، فلا يعرفون هل اعتراضهم على سلوكها اعتراض على الكبر، أم اعتراض على العلم والدين نفسه.

وقد تقنع زوجها بأن أهله لا يناسبون مستواهم الفكري، وأن مجالستهم تضيع الوقت، وأن على الأسرة أن تنعزل عن الأقارب البسطاء.

وقد تصنف الناس داخل العائلة:

هذه مثقفة تستحق القرب.

وهذه بسيطة فلا فائدة من مجالستها.

وهذه متعلمة، لكن تدينها غير كافٍ.

وهذه متدينة، لكنها ليست على المستوى الفكري المطلوب.

حتى يتحول البيت إلى لجنة تصنيف للبشر، وتصبح صلة الأرحام خاضعة لاختبار ثقافي وعلمي لا ينجح فيه إلا من وافق ذوق صاحبة المنزل وآراءها.

ثم يتعلم الأبناء هذه النظرة، فيحتقرون أقاربهم، ويستحيون من أجدادهم البسطاء، ويتعاملون مع الناس بحسب شهاداتهم وطريقة كلامهم، لا بحسب أخلاقهم وصدقهم وحقوقهم.

وقد يكبر الطفل وهو يظن أن احترام الإنسان مشروط بمستواه التعليمي، وأن المتدين هو من يكثر من التصحيح والاعتراض، وأن العلم يمنح صاحبه حق إصدار الأحكام على الآخرين.

وهكذا لا يبقى الخلل محصوراً في زوجة متعالية، بل يتحول إلى ثقافة أسرية قد تنتقل من الأبناء إلى الأحفاد.

الكبر إذا ارتدى ثوب الدين

أشد صور الكبر خطراً هي التي لا يراها صاحبها كبراً.

فالمتكبر بماله قد يعرف في داخله أنه يتفاخر، والمتكبر بجماله قد يدرك أنه معجب بنفسه، أما المتكبر بعلمه أو تدينه فقد يعتقد أن احتقاره للآخرين غيرة على العلم، وأن جفاءه حزم، وأن عزلته عن الناس حفاظ على مستواه.

وقد تقول:

- أنا لا أتكبر، لكنني لا أجد من يفهمني.
- أنا لا أحتقرهم، لكن أحاديثهم سطحية.
- أنا لا أقطع رحمي، لكنني أختار البيئة التي تناسبني.
- أنا لا أتعالى، لكن من حقي أن أعيش مع من هم في مستواي.

وتستطيع النفس أن تخترع ألف عبارة مهذبة لتغطية الكبر، لكن حقيقة السلوك تظهر في المعاملة:

هل تبتسمين للناس؟

هل تحترمين الإنسان البسيط؟

هل تستمعين لمن هو أقل تعليماً منك؟

هل تصبرين على أخطاء أهلك؟

هل تستخدمين علمك لرفع الناس، أم لرفع نفسك فوقهم؟

هل يشعر من يجلس معك بالأمان والرحمة، أم يشعر أنه أمام امتحان شفهي مفاجئ؟

العلم ليس سوطًا نجلد به الجاهل، بل مصباحًا نهديه به.

والدين ليس منصة نصعد عليها فوق الناس، بل طريقًا ننزل به إلى حاجاتهم، ونرحم ضعفهم، ونأخذ بأيديهم.

من الذي ينفخ في رأسها؟

لا تتحمل الزوجة وحدها مسؤولية هذا المرض دائمًا؛ فقد يساهم فيه زوج، أو أب، أو أم، أو محيط اجتماعي يبالغ في مدحها.

يقولون لها في كل مجلس:

- أنت مختلفة عن جميع النساء.
- لا يوجد في العائلة من هو في علمك.
- أنت أفهم من فلانة وفلانة.
- لا تتعبي نفسك مع هؤلاء؛ فهم لا يفهمونك.

ومع تكرار النفخ تنتفخ الصورة في رأسها، حتى يصبح من الصعب عليها أن ترى نفسها إنسانة عادية تصيب وتخطئ، وتتعلم من الكبير والصغير.

وقد يكون الزوج نفسه من صنع هذه الطبقية، حين أراد أن يفاخر بزوجته أمام الناس، فأخذ يقدمها بوصفها المرجع الأعلى في كل مسألة، ثم اكتشف بعد سنوات أنها صارت تتعامل معه هو أيضًا على أنه أحد طلاب الصف المتأخرين!

فمن ينفخ في رأس إنسان بالمديح المبالغ فيه، لا يشتكي عندما يصعب عليه المرور من أبواب البيوت!

والمدح الصادق جميل، وتشجيع المتعلم مطلوب، لكن تحويل العلم إلى لقب طبقي يفسد صاحبه ويحرمه بركة ما تعلم.

ولا يختلف هذا كثيراً عن الأهل الذين يكررون على ابنتهم منذ الصغر أنها أجمل من الجميع، أو أن عائلتها أرفع من الجميع، أو أن من يتزوجها يجب أن يوفر لها كل ما تشتهي.

فكثير من بنات الأرندلي لا يولدن بهذه العقلية، وإنما يصنعهن من حولهن بالنفخ المستمر، ثم يشتكون لاحقًا من حجم الانتفاخ.

العلاج: رد العلم إلى غايته

علاج بنت الأرندلي العالمة لا يكون بإهانتها، ولا بالسخرية من علمها، ولا بمنعها من التعلم، ولا بإشعارها أن تعليم المرأة سبب للمشكلات.

فالمشكلة ليست في العلم، بل في الكبر الذي التصق به.

والدواء أن تُذكَّر بأن ما لديها نعمة من الله، وأن شكر نعمة العلم يكون ببذله للناس والتواضع لهم والصبر عليهم، لا باعتزالهم واحتقارهم.

يقال لها بوضوح:

إن كان علمك قد جعلك أرحم بالناس، وأحسن خلقًا، وأقرب إلى أهلك، وأكثر صبراً على البسطاء، فقد نفعك الله به.

أما إن جعلك أبعد عن والديك، وأغلظ مع أخواتك، وأشد احتقاراً للناس، وأكثر إعجاباً بنفسك، فإن عليك أن تراجعي نفسك قبل أن تطلبي من الآخرين أن يراجعوا مستواهم.

ويجب أن يقال لمن يبالغ في مدحها وينفخ في رأسها:

لا تفسدوا الإنسان وأنتم تظنون أنكم تكرمونه.

لا تجعلوا كل كلمة تقولها فتحًا علمياً.

ولا تحولوا اجتهادها في التعلم إلى إذن مفتوح لها بتصنيف الناس واحتقارهم.

ذكّروها أن العالم الحقيقي يستطيع أن يجلس مع الكبير والصغير، والمتعلم والبسيط، وأن يخاطب كل إنسان بما يفهم، وأن يرى في كل شخص باباً من الخبرة قد لا يجده في الكتب.

فالمرأة البسيطة قد تعلم العالمة الصبر.

والأم غير المتعلمة قد تعلمها الوفاء.

والجدة التي لا تقرأ قد تعلمها الحكمة في إصلاح البيوت.

والعاملة الفقيرة قد تعلمها العزة والصدق وتحمل المسؤولية.

ومن ظنت أنها لا تتعلم إلا من أصحاب الشهادات، فقد أغلقت على نفسها معظم أبواب المعرفة.

دور الزوج في إيقاف الطبقية العلمية

إذا ظهرت هذه العقلية داخل البيت، فعلى الزوج أن يكون حازمًا وعادلاً، لا خصمًا للعلم ولا تابعًا للاستعلاء.

لا يسمح بأن تتحول ثقافة زوجته إلى سبب لقطع أهله أو احتقارهم، ولا يقبل أن يُربى أبناؤه على ازدراء الناس.

وعليه أن يفرق بين حقها في اختيار بعض الصديقات والبيئات النافعة، وبين تحويل الاختيار إلى قطيعة وطبقية.

ليس مطلوبًا من الإنسان أن يصاحب الجميع صحبة خاصة، لكنه مطالب باحترام الجميع، وأداء الحقوق، وصلة الأرحام، وحسن المعاملة.

يقول لها بهدوء:

أحترم علمك وأشجعك عليه، لكن العلم لا يعطي أحدًا الحق في احتقار أهلي أو أهلك.

اختلاف مستوى التعليم لا يسقط حقوق القرابة.

وبساطة الحديث لا تعني بساطة الإنسان.

ولا أريد لأبنائنا أن يكبروا وهم يظنون أن الشهادة تمنحهم قيمة أعلى من غيرهم.

وإذا لم ينفع الحوار الهادئ، وجب الاستعانة بمن تثق الزوجة بعلمه وحكمته ليبين لها خطورة ما تفعل؛ فقد تقبل من معلمتها أو من امرأة صالحة ما لم تقبله من زوجها بسبب طول الخلاف.

لكن لا ينبغي ترك السلوك يتمدد سنوات بحجة أنها متعلمة أو متدينة؛ لأن الخطأ إذا اكتسب حصانة دينية أو علمية أصبح إصلاحه أشد صعوبة.

وفي المقابل، يجب ألا يحول الزوج اعتراضه على الكبر إلى حرب على تعليم زوجته، أو إلى سخرية من ثقافتها، أو محاولة لإطفاء طموحها.

فالزوج الحكيم يحفظ العلم، لكنه يمنع الاستعلاء باسمه، ويشجع التعلم، لكنه يرفض أن يتحول بيته إلى محكمة دائمة للناس.

العلم الذي يعزلك عن الناس يحتاج إلى مراجعة

ليس العالم من جمع حوله جماعة تشبهه في الكلام والملابس والاهتمامات، ثم أغلق الباب على بقية البشر.

العالم الحق هو من يستطيع أن يكون نافعاً حيثما جلس.

يعلّم دون أن يفضح الجهل.

ويصحح دون أن يكسر القلب.

ويختلف دون أن يهين.

ويخالط الناس دون أن يذوب في أخطائهم.

ويرى العلم أمانة، لا تاجاً.

فإن جلست العالمة مع النساء البسيطات، فقد تفتح لهن أبواباً من الفهم، وقد تجيب عن سؤال يخجلن من طرحه، وقد تصحح مفهوماً خاطئاً بلطف، وقد تقتدي بها فتاة صغيرة فتحب العلم والدين.

أما إن اعتزلتهن وتكبرت عليهن، فقد حرمت نفسها أجر النفع، وحرمت الناس ما آتاها الله، وربما جعلت بعضهم يكره العلم أو ينفر من التدين بسبب أسلوبها.

وهنا تصبح المصيبة مضاعفة: لم تنتفع هي بعلمها، ولم تدع الناس ينتفعون به، بل جعلته حاجزاً بينها وبينهم.

كلمة إلى بنت الأرندلي العالمة

يا من تعلمت ودرست، احمدي الله على ما منحك، واعلمي أن العلم امتحان كما هو تكريم.

لا تجعلي الشهادة سوراً بينك وبين أمك.

ولا تجعلي ما حفظته من النصوص سلاحاً على أخواتك.

ولا تنظري إلى المرأة البسيطة على أنها أقل قيمة منك؛ فقد تكون عند الله أرفع منك بصدق قلبها وإخلاصها وحسن معاملتها.

لا تتركي مجالس الناس لأن حديثهم لا يشبه كتبك، بل انزلي بعلمك إليهم، وخاطبيهم بما يفهمون، واسمعي منهم كما تحبين أن يسمعوا منك.

ولا تظني أن التواضع يقلل من مقامك؛ فكلما كان علمك أكبر، كان احتياجك إلى التواضع أشد.

إن احترمك الناس لعلمك فاشكريهم، وإن مدحوك فلا تصدقي كل ما يقولون، وإن سألوك فأجيبي برفق، وإن جهلوا فلا تعيريهم بجهلهم.

فأنت لم تولدي عالمة، وإنما تعلمت لأن من قبلك صبر عليك وشرح لك وأعاد لك المسألة.

افعلي مع الناس ما فعلوه معك.

ولا تكوني كمن صعد السلم، ثم أخذ يركل درجاته حتى لا يصعد أحد بعده.

إن العلم الذي يقربك من الله لا بد أن يقربك من خلقه بالرحمة والعدل وحسن المعاملة.

أما العلم الذي يجعلك ترين الناس صغاراً، فربما لم يكبر فيك العلم، وإنما كبرت نفسك فقط.

كيف تولد بنت الأرندلي؟

هذا السلوك لا يظهر من فراغ، وله أسباب متعددة، منها التربية التي تربط قيمة الفتاة بما يقدمه لها زوجها، وكأن نجاحها يقاس بحجم البيت وعدد الرحلات.

ومن أسبابه أيضًا الشعور القديم بالنقص؛ فالإنسان الذي لم يتصالح مع ماضيه قد يحاول الانتقام منه بعد تحسن حاله، فيبالغ في إظهار تفوقه على من يذكرونه بأيامه السابقة.

وقد يكون النقص ماليًا، أو اجتماعيًا، أو علميًا؛ فتتعلم المرأة بعد سنوات، ثم تجعل شهادتها تعويضًا عن ألم قديم، وتستخدمها لإثبات أنها أصبحت أعلى من أشخاص شعرت يومًا أنهم كانوا أعلى منها.

وقد يكون الزوج نفسه شريكًا في صناعة المشكلة، عندما يبدأ الزواج بالتفاخر والوعود غير الواقعية، فيقدم نفسه بصورة أكبر من إمكاناته كي يفوز بالقبول، ثم يعجز عن المحافظة على الصورة.

فمن قال لخطيبته إنه يستطيع كل شيء، لا يندهش عندما تطالبه لاحقًا بكل شيء.

ومن قدم زوجته للناس بوصفها أعلم أهل الأرض، لا يتفاجأ عندما تبدأ معاملته باعتباره طالبًا لم يحسن مراجعة الدرس.

وقد يساهم الأهل أيضًا عندما يخفون الحقيقة المالية، أو يرددون للشاب:

- بعد الزواج يفتحها الله عليك.

نعم، يفتح الله أبواب الرزق، لكن التخطيط المالي لا يتعارض مع التوكل، والديون لا تُسدَّد بالأماني وحدها.

وقد يساهمون في الطبقية العلمية حين يكررون للفتاة أنها لا تشبه نساء العائلة، وأن حديث قريباتها لا يليق بها، وأن عليها ألا «تضيع وقتها» مع البسطاء.

ومن الأسباب كذلك ضعف مفهوم القناعة.

والقناعة لا تعني الاستسلام للفقر أو رفض تحسين الحياة، بل تعني أن يعيش الإنسان ضمن قدرته، ويسعى إلى الأفضل دون أن يحرق حاضره أو يظلم من حوله.

كما أن التواضع لا يعني إنكار العلم أو إخفاء التفوق، بل يعني أن يعرف الإنسان أن النعمة لا تجعله أفضل من الآخرين في ذاته، وإنما تزيد مسؤوليته تجاههم.

وكما يقول المثل الشعبي الصادق:

على قدر لحافك مد رجليك.

فإن طال اللحاف يوماً فالحمد لله، وإن قصر قليلاً فلا داعي أن تترك قدميك في البرد حتى يراك الناس أطول مما أنت عليه!

وعلى قدر علمك أيضاً مد تواضعك؛ فكلما زادت المعرفة، كان ينبغي أن يتسع صدر صاحبها، لا أن يضيق بخلق الله.

الوقاية تبدأ قبل الخطبة

لا ينبغي للشاب أن يجعل الجمال يلغي بقية الحسابات، ولا للفتاة أن تجعل الوظيفة والسيارة تلغيان معرفة أخلاق الرجل وقدرته الحقيقية.

ومن المهم قبل الزواج مناقشة أسئلة واضحة، لا رومانسية فقط:

كيف نريد أن نعيش؟

ما مستوى السكن المتوقع؟

هل تقبل الزوجة أن تبدأ حياة متواضعة؟

ما موقف الطرفين من الديون؟

كيف ستُدار المصروفات؟

ما حدود مساعدة الأهل؟

هل السفر والترفيه ضرورة سنوية، أم أمر مرتبط بالقدرة؟

ما الموقف إذا انخفض الدخل أو فُقد العمل؟

كيف ينظر كل طرف إلى أهل الآخر؟

هل تُحترم صلة الأرحام ولو تفاوتت المستويات المالية والتعليمية؟

هل يرى أحد الطرفين نفسه أعلى من الناس بسبب شهادته أو عائلته أو ثقافته؟

كيف يتعامل مع من يخطئ أو يجهل؟

هل يستخدم علمه للرفق بالناس، أم لتصيد عثراتهم؟

هذه الأسئلة لا تقتل الحب، بل تحميه من أن يُقتل لاحقاً تحت ضغط الفواتير والمقارنات والمحاضرات اليومية.

ومن المفيد مراقبة سلوك الإنسان، لا كلامه فقط.

انظر كيف تعامل الفتاة أهلها، وكيف تتحدث عن صديقاتها، وكيف تتصرف عندما يُرفض لها طلب.

وانظر كيف تعامل النساء البسيطات، وكيف تتحدث عن غير المتعلمات، وهل تشارك أهلها مجالسهم بود، أم تجلس بينهم كأنها لجنة تقييم ثقافي.

وانظري أنتِ أيضًا كيف يتعامل الخاطب مع أمه وأخواته، ومع العامل والموظف ومن هو أضعف منه، وهل يحترم المرأة المتعلمة، أم يريد زوجة بلا رأي حتى يسهل التحكم بها.

فالإنسان الذي يحتقر الناس قبل الزواج لن يتحول بعده فجأة إلى حمامة سلام.

لا تتزوج مشروعًا لإعادة التأهيل

من الأخطاء الشائعة أن يرى أحد الطرفين عيبًا واضحًا ثم يقول:

- بعد الزواج سيتغير.

قد يتغير الإنسان فعلاً، لكن الزواج ليس مركزًا لإعادة التأهيل، ولا ينبغي أن يدخل المرء إليه وهو يراهن بحياته على تغيير شخص لا يرى في نفسه مشكلة.

المرأة التي تسخر من مستوى بيتك في الخطبة لن تصبح غالبًا بعد الزواج خبيرة في القناعة.

والمرأة التي تحتقر قريباتها البسيطات وتصفهن بالجهل لن تتحول تلقائيًا بعد الزواج إلى نموذج في التواضع وصلة الأرحام.

والرجل الذي يتفاخر بما لا يملك لن يتحول بعد الزواج تلقائيًا إلى مدير مالي حكيم.

والرجل الذي يسخر من علم المرأة وثقافتها لن يصبح بمجرد عقد القران داعمًا لطموحها.

الإشارات الصغيرة قبل الزواج كثيراً ما تصبح لافتات ضخمة بعده.

والعبارة التي تُقال مرة في الخطبة قد تتحول بعد الزواج إلى منهج كامل لإدارة البيت.

العلاج بعد الزواج: الحزم بلا ظلم

قد يكتشف الزوج المشكلة بعد الزواج، وربما بعد سنوات. وهنا لا يفيد الصراخ، ولا الإهانة، ولا تحويل الخلاف إلى معركة بين العائلتين.

الحزم المطلوب ليس تسلطاً، وليس عنفاً، وليس مصادرة لحق الزوجة في حياة كريمة أو في التعلم والثقافة.

الحزم هو أن تكون للبيت حدود واضحة، وأن تُربط المصروفات بالقدرة الحقيقية، وألا يسمح الزوج لنفسه أو لزوجته بتدمير الأسرة من أجل المظاهر أو الطبقية أو التعالي.

يجلس الطرفان، ويضعان الدخل والالتزامات أمامهما بوضوح، ويتفقان على ميزانية معقولة، وعلى أولويات الأسرة، وعلى مقدار الادخار والترفيه والمساعدة.

وعندما تظهر المقارنة، ينبغي إيقافها بهدوء:

نحن لسنا فلاناً وفلانة.

دخلنا ليس دخلهم.

وأولوياتنا ليست أولوياتهم.

والصورة التي نشاهدها لا تخبرنا بحقيقة حياتهم.

وإذا ظهرت طبقية العلم والثقافة، ينبغي أيضاً إيقافها بوضوح:

أهلنا ليسوا مطالبين بالحصول على شهادات كي يستحقوا احترامنا.

البساطة ليست عيباً.

والعلم لا يسقط حقوق القرابة.

ولا يملك أحد أن يحول البيت إلى قاعة امتحان للآخرين.

كما يجب رفض الإساءة إلى أهل الزوج أو أهل الزوجة. فلا يحق للمال أن يقطع الرحم، ولا للشهادة أن تحتقر البسطاء، ولا للزواج أن يتحول إلى وسيلة لاحتقار الأسرة التي جاء منها أحد الطرفين.

وإن تعذر الحوار، يمكن الاستعانة بشخص حكيم من الأسرة أو بمستشار أسري مؤهل، بشرط أن يكون هدف التدخل الإصلاح، لا جمع الأسرار وتوزيع الاتهامات.

أما الاستمرار في تمويل المظاهر خوفاً من غضب الطرف الآخر، أو السكوت عن احتقار الأهل خوفاً من لقب «العالمة» أو «المثقفة»، فليس كرماً ولا حكمة، بل تأجيل للأزمة حتى تصبح أكبر.

الأطفال يدفعون الثمن

أخطر ما في عقلية بنت الأرندلي أنها لا تتوقف عند الزوجين، بل تدخل إلى عقول الأبناء.

فالطفل الذي يسمع أمه تسخر من بيت خالته المتواضع، أو يرى والده يتعالى على أقاربه، يتعلم أن الإنسان يُقاس بما يملك.

والطفل الذي يسمع أمه تحتقر جدته لأنها لم تتعلم، أو تسخر من قريبة أخطأت في التعبير، يتعلم أن الإنسان يُقاس بشهادته وطريقة كلامه.

وقد يخجل من أقاربه، أو يختار أصدقاءه بحسب سيارات آبائهم، أو يعتقد أن العمل البسيط عار، وأن السعادة لا تكون إلا فيما يعرضه الآخرون.

وقد يستحي من جده لأنه لا يعرف استخدام الهاتف، أو من جدته لأن لهجتها بسيطة، أو من خاله لأنه يعمل في مهنة متواضعة، مع أن هؤلاء قد يكونون أصدق الناس قلباً وأوفاهم عشرة.

وبذلك تنشأ أجيال هشة، لا تعرف قيمة الجهد، ولا تتحمل تغير الظروف، وتنهار نفسياً عندما تواجه أول نقص حقيقي.

وقد تنشأ أيضاً أجيال متعالية، تتقن المصطلحات ولا تتقن الرحمة، وتحفظ النصوص ولا تحفظ حقوق الناس، وتظن أن كثرة التصحيح علامة على التدين، وأن قلة الابتسام دليل على الهيبة العلمية.

أما الطفل الذي يرى والديه يعيشان بكرامة ضمن إمكاناتهما، ويشكران النعمة، ويحترمان الفقير والغني، والمتعلم والبسيط، فإنه يتعلم أن المال وسيلة لا هوية، وأن العلم أمانة لا طبقة اجتماعية، وأن ارتفاع الدخل أو كثرة الشهادات لا تجعل الإنسان أطول قامة أخلاقية.

الرجل الحكيم لا يعيش لإرضاء الجمهور

الرجل الحكيم يرضى بقسمة الله ويسعى في الوقت نفسه إلى تحسين حياته. فإذا اتسع رزقه أكرم أهله دون إسراف، وإذا ضاق أمسك بالمعروف دون بخل أو إذلال.

لا يبخل بحجة القناعة، ولا يسرف بحجة الكرم.

ولا يسمح لنفسه أن يتحول إلى عبد لنظرات الناس أو لتعليقات الأقارب أو للصور المنشورة.

ولا يتفاخر بزوجته المتعلمة حتى يصنع منها صنماً ثقافياً داخل البيت، ولا يحارب علمها خوفاً من أن تناقشه أو تخالفه.

كما أن المرأة الحكيمة لا تقيس نجاح زوجها بمقدار ما يتفوق به على أزواج صديقاتها، بل بما يبذله، وبأمانته، ورحمته، وحسن إدارته، واستعداده لبناء حياة مستقرة معها.

ولا تقيس قيمة أهلها وأهل زوجها بشهاداتهم أو أثاث بيوتهم، بل بأخلاقهم وحقوقهم وصدق مودتهم.

الزواج الناجح ليس سباقاً اجتماعياً، ولا معرض أثاث، ولا مؤتمر أنساب، ولا قاعة محاضرات، ولا جولة يومية لإثبات أن أسرتنا أفضل من الآخرين.

إنه بيت يعيش أهله داخل إمكاناتهم، ويتعاونون عندما تضيق، ويحمدون الله عندما تتسع، ويحفظون كرامة بعضهم في الحالين.

كلمة إلى بنت الأرندلي

يا سيدتي، ليس مطلوباً منك أن تعيشي محرومة، ولا أن تتنازلي عن حقك في حياة كريمة، ولا أن تتوقفي عن الطموح أو التعلم.

لكن الحياة الكريمة لا تعني تقليد حياة الآخرين.

والطموح لا يعني إنهاك الزوج بالديون.

والأناقة لا تعني احتقار البسطاء.

والعلم لا يعني تحويل الناس إلى درجات.

وتحسن حالك بعد الزواج لا يمنحك حق التنكر لأهلك، ولا تحويل زوجك إلى جسر تصعدين عليه ثم تنظرين منه إلى الناس.

وحصولك على شهادة لا يمنحك حق احتقار أم لم تدخل الجامعة، أو أخت لم تقرأ ما قرأت، أو قريبة تتحدث بعفوية وبساطة.

المرأة العظيمة لا يكبرها البيت الواسع، بل تكبر هي بالبيت.

ولا ترفعها السيارة، بل يرفعها عقلها وخلقها ووفاؤها.

ولا ترفعها الشهادة وحدها، بل يرفعها ما صنعت الشهادة في سلوكها من تواضع ورحمة وحكمة.

ومن كانت قيمتها معلقة بما يشتريه زوجها، فقد جعلت قيمتها تحت رحمة السوق؛ ترتفع مع ارتفاع الدخل، وتنخفض عند أول أزمة مالية.

ومن كانت قيمتها معلقة بمدح الناس لعلمها، فقد جعلت قيمتها تحت رحمة التصفيق؛ تنتفخ حين يمدحونها، وتغضب حين يعاملونها كإنسانة عادية تصيب وتخطئ.

كوني طموحة، لكن لا تكوني متعالية.

وتعلمي، لكن لا تجعلي العلم حاجزًا بينك وبين الناس.

واطلبي حياة أفضل، لكن لا تهدمي حياتك الحالية وأنت تطاردين صورة غيرك.

وكلمة إلى ابن الأرندلي أيضًا

لا تتظاهر بالقدرة كي تبهر فتاة، ثم تشكو بعد الزواج من كثرة طلباتها.

ولا تجعل التفاخر أسلوب خطبتك، ثم تطالب زوجتك فجأة بأن تصبح زاهدة بعد أن قدمت لها نفسك بوصفك صاحب خزائن الأرض.

ولا تتفاخر بعلم زوجتك أمام الناس حتى تصنع داخلها صورة لا تستطيع أنت ولا هي احتمالها.

وفي المقابل، لا تجعل خطأ امرأة متعالية ذريعة لمحاربة تعليم النساء أو السخرية من ثقافتهن.

فالمشكلة ليست في المرأة المتعلمة، بل في الإنسان الذي لم يهذب علمه نفسه، رجلاً كان أو امرأة.

كن واضحًا من البداية.

لا تعد بما لا تستطيع.

ولا تستعمل المال لإخضاع زوجتك، كما لا تسمح لها باستعمال المقارنة لإخضاعك.

ولا تستعمل قلة تعليمها لاحتقارها، كما لا تسمح لها باستعمال شهادتها لاحتقارك أو احتقار أهلك.

القوامة مسؤولية ورعاية وحسن إدارة، وليست استبداداً.

والحزم حماية للبيت، لا إهانة لمن يسكنه.

الخلاصة: الأرندلي يسكن العقل لا البيت

بنت الأرندلي ليست ابنة رجل مجهول، بل ابنة أفكار خاطئة:

المقارنة.

والغرور.

والخوف من كلام الناس.

وعبادة المظاهر.

والتعصب للأسماء والعائلات.

والهرب من الشعور بالنقص بالتعالي على الآخرين.

وقد تكون أيضًا ابنة شهادة لم تحملها النفس بتواضع، أو علم لم يتحول إلى حكمة، أو تدين لم يثمر رحمة وحسن خلق.

وقد تدخل هذه العقلية بيتًا غنيًا أو فقيراً، متعلماً أو بسيطًا، محافظًا أو منفتحًا.

وقد ترتدي ثوبًا فاخراً، أو تحمل حقيبة ثمينة، أو تجلس خلف شاشة هاتف، أو تقف فوق منبر علمي متخيل.

لكن الروح واحدة: أن يرى الإنسان نفسه أكبر من الناس، وأن يجعل نعم الله أدوات لقياسهم واحتقارهم بدل خدمتهم والإحسان إليهم.

والدواء يبدأ بالاختيار الواعي، والوضوح قبل الزواج، والاتفاق على نمط المعيشة، والتربية على القناعة والامتنان، وتعليم الأبناء أن الناس لا تُقاس بأموالها ولا بأسمائها ولا بشهاداتها.

ثم يأتي الحوار الصريح والحزم العادل عندما يظهر الخلل.

وحتى إن تأخر اكتشاف المشكلة، فالإصلاح يظل ممكنًا ما دام الطرفان مستعدين للاعتراف بها.

ليس الهدف أن ينتصر الزوج على زوجته، أو الزوجة على زوجها، بل أن ينتصر الاثنان على عقلية صغيرة كادت تلتهم عمرهما.

فالعمر أقصر من أن يُستهلك في مقارنة الستائر والسيارات والرحلات.

والحياة أثمن من أن تتحول إلى مسرحية طويلة يؤدي الزوجان فيها دور السعداء أمام الناس، ثم يعودان خلف الستار مثقلين بالديون والعتاب.

والعلم أكرم من أن يتحول إلى جدار يعزل الإنسان عن أمه وأبيه وأهله والناس.

والدين أعظم من أن يُستخدم غطاء للكبر أو وسيلة لتصنيف البشر واحتقارهم.

عش على قدر استطاعتك، واسعَ إلى الأفضل بكرامة، وأكرم عندما تتسع يدك، واصبر عندما تضيق.

وتعلم ما استطعت، لكن اجعل علمك بابًا إلى الناس، لا سورًا بينك وبينهم.

ولا تسمح لبنت الأرندلي — ولا لابن الأرندلي — أن يديرا بيتك.

فالبيوت السعيدة لا تحتاج إلى جمهور يصفق لها، ولا إلى لجنة تمنح أفرادها شهادات التفوق على الآخرين.

إنما تحتاج إلى عقل يحسن التدبير، وقلب يعرف الرضا، وعلم يثمر تواضعًا، وزوجين يفهمان أن كرامة الحياة ليست في أن نبدو أغنى أو أعلم أو أرفع من الآخرين، وإنما في ألا نخسر أنفسنا وأهلنا ونحن نحاول إقناعهم بذلك.

❖